

التاريخ وعلم اللهجات(*)

لوسيان فيفر
ترجمة ص. علي عازايكو
كلية الآداب — الرباط

إن تقدير الأهمية القصوى التي يمكن أن يسفر عنها التعاون بين التاريخ وعلم اللهجات، في دراسة عدد من المسائل الخاصة، كان ولاشك، خلال السنوات الأخيرة، أسهل بكثير من تحقيق هذا التعاون نفسه. ذلك لأن المرء لا يصبح عالماً في اللهجات بطريقة ارتجالية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لأن مونوكرافيات (Monographies) الاختصاصيين المشتغلين بالأبحاث الصوتية (Phonétiques) أو النحوية فقط، كانت قد بقيت مهملة كذلك من المؤرخين، ولكل الذين عرفوا هذه الوضعية وتأسفوا عليها، نود أن نشير هنا بسرعة إلى ظهور مؤلفين حديثين ونشير كذلك إلى توجهاتهما: ورغم وجود اختلافات عميقة بخصوص المنهج والأصل والإيجاء، فإنهما، من وجهة نظرنا الخاصة، يدوان لنا كذلك غنيين بالوعود.

ها هي ذي أولاً أطروحة قدمت بمدرسة شارل (L'Ecole des chartes)، خصصت لدراسة مسألة هامة تتعلق بالإسكان (Peuplement)، روجعت وتمت، بعد موت مؤلفها، قصد النشر ضمن منشورات خزانة مدرسة الدراسات

(*) «Histoire et dialectologie» هو العنوان الذي اختاره Lucien Febvre لمقاله هذا، والذي نشر في مجلة: Revue de synthèse historique, T. XII - 3 (n° 36), Juin 1906, pp. 249-261 ويبدو أن هذا العدد من المجلة غير موجود في المغرب وربما كان هذا هو السبب في عدم اطلاع المؤرخين الباحثين المغاربة عليه. وكيفما كان الأمر، فإنني لم يسبق لي أن صادفت إشارة إليه فيما رأيته من أبحاثهم (هامش من المترجم).

العليا⁽¹⁾ (Bibliothèque de l'Ecole des Hautes-Etudes) إنه كتاب كامل الوضوح، يُدرك مرماه العام بدون كثير عناء.

في شتنبر 1890، ذهب المؤلف في جولة إلى الجنوب الغربي الفرنسي قصد دراسة لهجات بيارني (Patois béarnais). وكان يعرف مقدما بأن أداة التعريف (L'article) في المنطقة التي سيتجول فيها، تتخذ شكلين مختلفين : ففي السهل المجاور لجبال البرانس، يوجد شكل «لُو» و«لَا» (lu, la)؛ وفي أودية الجبل المسكونة، يوجد شكل «إِتْ» و«إِرْ» (et, era). هذه القاعدة مؤكدة بالفعل في مجموع المنطقة، ماعدا في وادي «أَوْصُو» دون غيره (Ossau)، حيث يلاحظ أنه في جميع القرى، باستثناء ثلاثة، تقع على الحد الفاصل بين السهل والجبل بالذات، وجد [المؤلف] la, lu بدل era, et ها هو ذا المشكل قد طرح : كيف يمكن تفسير هذا الشذوذ المزدوج مرة واحدة ؟

إن أول فكرة تخطر على البال، هي أن ما وقع هنا لابد أن يكون من قبيل الغزو الشكلي : [أي أن] أداة التعريف (L'article) السهلة صعدت شيئا فشيئا عبر الوادي، منحية أمامها أداة التعريف الجبلية. نعم، ولكن في هذه الحالة، كيف يفسر عدم تغلبها [أي أداة التعريف السهلة] في القرى الثلاثة الأولى التي صادفها ؟ ثم لماذا وقع هذا الغزو في وادي أَوْصُو (Ossau) وحده دون غيره ؟ أَوْصُو ليست له علاقات مع السهل أكثر من الأودية المجاورة، ثم إن هناك أمثلة كثيرة في المنطقة تظهر أن وجود علاقات قارة ومستمرة ووثيقة بين قرى السهل وقرى الجبل لم ينتج عنه بتاتا تحلّي هذه الأخيرة عن أداة التعريف التي تستعملها.

ينبغي البحث في اتجاه آخر إذن : فإذا لم يكن غزو الشكل (Invasion de forme) هو الذي وقع، فإن الواقع المحتمل هو غزو السكان (Invasion de population). فوصول مجموعة بشرية آتية من السهل إلى [وادي] «أَوْصُو» (Ossau) واستقرارها به محتفظة بلهجتها، قد يكون، لحسن الحظ، تفسيرا كافيا للوقائع المطلوب تفسيرها. إنها فرضية جد مقبولة : فتنقلات السكان المشابهة لهذه، أشير إليها مرات متعددة، وخاصة منها تلك التي تتم بالمناطق الجبلية. غير أن الأمر يقتضي تبرير

(1) Passy (J), L'origine des Ossalois, ouvrage revu et complété par P. Passy, Bibliothèque de l'Ecole des Hautes-Etudes; Paris, Bouillon (Champion), 1904, XVI - 160p. et 6 cartes, in - 8.

ذلك وتأكيد به بالوقائع : وهذا ما يحاول المؤلف القيام به معتمدا على معطيات علم اللهجات وعلى معطيات التاريخ.

وبالفعل فقد انكب طويلا على دراسة لهجات وادي «أوصو» (Ossau) والأودية المجاورة، وأبرز التشابهات المدهشة الموجودة بين كل الذين حافظوا على شكل «إث» و«إر» (et, era) في شرق وغرب بلاد «أوصو» (Pays Ossalois)، وتوافقها العجيب فيما يتعلق بالوقائع القديمة على وجه الخصوص. فقد أثبت وجود تقارب كبير بين هذه اللهجات ولهجة قرى «أوصو» الثلاثة التي انفردت بعدم أخذ أداة التعريف السهلية. وأكد أخيرا هذا الواقع الذي أثبتته من قبل التوزيع الجغرافي للأداة وحده : [ويتجلى هذا الواقع في] ان لهجات وادي «أوصو» التي يستعمل فيها «لأ» و«لو» (la, lu)، هي بالتأكيد لهجات مرتبطة بالتي هي متداولة في السهل، فهي [إذن] لهجات جاءت من السهل.

هكذا نرى أن الأبحاث اللسانية المحضة، التي سمحت من قبل بطرح المشكلة، هي التي مكنت من ضبط حدودها. إنها تقوم بأكثر من ذلك : إنها توفر عناصر الحل. لأن الدراسة المتأنية للهجات السهل، لا يستتج منها وجود قرابة عامة بينها وبين لهجات وادي «أوصو» فحسب، ولكن وجود قرابة خاصة بين البعض منها، مُوزَّع جغرافيا على مجموعتين متباينتين وبين لهجات قرى «أوصو» (Villages Ossalois).

هل يمكن الاختيار بين هاتين المنطقتين ؟ هل يمكن الذهاب بعيدا [في البحث] ؟ نعم، ولكن ليس بمساعدة علم اللهجات (La dialectologie) كما وقع في السابق. إذ منه تولد المشكل، وبواسطته أمكن تبيان حدوده، وعن طريقه أخيرا أمكنَ لَمْحُ الحل ثم الاقتراب منه. حان للتاريخ أن يتدخل الآن، وأن يتم ما بدأته، من قبل، الدراسات اللسانية، ويؤكد.

هذا التدخل يبدو صعبا في البداية : فمن بين النصوص والوثائق — وهي نادرة جدا قبل القرن الحادي عشر، متوفرة بكثرة بعد ذلك — التي تهم وادي «أوصو» أو المناطق السهلية المحيطة به، لا يوجد منها بتاتا ما له علاقة بالاحتلال المفترض. ولكن ألا يمكن أن يستخرج من هذه الملاحظة السلبية شيء ما إيجابي : وهو أن الاحتلال في حالة ما إذا وقع، فإنه ما كان له أن يتم بعد القرن الحادي عشر،

لأنه لو وقع بعد ذلك لاحتفظ لنا واحد من النصوص الكثيرة التي تتوفر عليها بذكرى حدث بهذه الضخامة ؟ ها هي ذي الهجرة إذن قد حُصرت على ما يبدو، من حيث الفترة الزمنية التي وقعت فيها، فيما بين القرن السادس، وهو العصر المحتمل للرومنة (Romanisation) الكاملة للإقليم، والقرن XI. هذه الفترة من التاريخ تعد بصفة خاصة مضطربة. إذ هي فترة الغزوات الكبرى والاكنتاسحات (Ravages) والكوارث (Désastres). وبهذا الخصوص بالضبط تقول نصوصنا بأن النورمانديين خربوا، في منتصف القرن التاسع في إقليم الجنوب الغربي (Sud - Ouest) حاضرة (Cité) تسمى (Beneharnum) التي ربما كانت تحتل موقع (Lescar). ولهجة (Lescar) واحدة من التي أظهرت التجربة الدياليكتولوجية قرابتها الوثيقة من لهجات «أوسو» (Le patois Ossalois) : وانطلاقاً من هذا يكفي أن نخطط خطوة واحدة ليتم ربط الهجرة المفترضة بتخريب (Beneharnum). لقد خطا المؤلف هذه الخطوة بسهولة زاد فيها اعتقاده أيضاً بأن واقعاً آخر تدخل لتأكيد فرضيته : [هذا الواقع يتجلى في] كون قرى «أوسو» كلها تملك، منذ زمن عريق في القدم، أرضاً واسعة (Lande) هي (Pont - long) التي تقع حوالي (Lescar) بالذات.

لاحظ المؤلف إذن توافق افتراضاته التاريخية مع ملاحظاته اللسانية، فاعتقد أن بإمكانه أن يخلص إلى أن سكان «أوسو» هم من ذرية سكان Lescar والنواحي المجاورة لها، طردوا إلى الجبل بفعل الغزو في القرن التاسع، واحتلوا فيه كل الوادي باستثناء ثلاثة قرى بقيت في ملك السكان القدامى. وهكذا تكون الوضعية الحالية قد فسرت بمهارة.

فسرت بمهارة، ولكن ليس بيقين. إذ عرضنا هذا يظهر، كما نرجو، كل ما هو مُغرٍ، غير أنه يظهر كذلك كل ما هو من قبيل المغامرة أو الجسارة في العمل الذي يشغلنا. إن المؤلف أضاف فرضيات لسانية إلى فرضيات تاريخية غير أنه لا يمكن بحال أن ينتج اليقين عن مجموع من الفرضيات. ولكن الشيء المهم الموجود في هذا الكتاب في نظرنا، ليس بتاتا هو القيمة الحقيقية لخلاصاته؛ وإنما هو جدّة تصوره. وهذا ما تبينه الناشر السيد P. Passy، وعبر عنه بوضوح في التقديم (ص IX). «إن الأطروحة نفسها، يقول الناشر، التي عمل أخي على إثباتها،

سكان أوصوهم من ذرية سكان Lescar طردوا من قبل النورماندين، هذه الأطروحة برهن عنها على ما أظن بطريقة لا يمكن دحضها، لتجاوز عن هذا الذي تم تأكيده : ولكنه أضاف وبكامل الصواب هذه المرة : « إن هذا يمثل حدثا تاريخيا قليل الأهمية». إن المهم «هو أنه من أجل اثباته طبق علم اللهجات على التاريخ. وهنا يكمن الحدث الجديد حسب علمي، لقد سبق أن تم تطبيق اللسانيات على التاريخ، غير أنه لم يقع مثل ذلك بالنسبة إلى علم اللهجات».

أن يكون حدثا جديدا وحدثا خصبا كذلك، اننا نرجو ذلك. إن [كتاب] أصل الأصالويين (L'origine des Ossalois) لا يتضمن منهجا جديدا ولم يأت به غير أن ظهوره يُكوّن سابقة جديرة بالإشارة، كيفما كانت القيمة الحقيقية للأطروحة المقدمة فيه كذلك. نظرا لكثرة المسائل التي قد تمكّن الأبحاث المماثلة لهذه، من تناولها بالدرس ومن حلها أحيانا. من بين هذه المسائل تلك التي تتعلق بالإسكان، والتي تطرح على المؤرخ في كل لحظة، وخاصة في مناطق الجبال، الجورا (Le Jura) والقوج (Le Vosges) والالب (Les Alpes) والبرانس (Les pyrénées)، هذه البلدان التي بقيت مدة طويلة كأوراش كبيرة للتجثيث، وكمستعمرات كبيرة للاسكان مفتوحة في أوروبا أمام الأنشطة الحرة للسكان القدامى. هذه المسائل المهمة في حد ذاتها مرتبطة بأخرى، يمكنها أن تلقي أضواء لم تكن منتظرة على تاريخ القانون والمؤسسات السياسية أو البلدية (Municipales)، ونظام الشغل والنشاط الاقتصادي كذلك لإقليم بكامله.

إن قلة النصوص، وعدم توفر الدقة المطلوبة في الشواهد الوثائقية المتعلقة بمثل هذه المواد، بلغ حداً لا يمكننا معه الترفع عن الاستعانة بعلم اللهجات (Dialectologie) حين يبذل، بدراساته الخاصة، مجهودات لتحديد الأصل الجغرافي لمجموعة معينة من الكلمات في لهجة ما أو اللهجة محددة في إقليم معين.

ونفس الشيء يمكن أن يقال حينما يتعلق الأمر بدراسة تكوين أقالمتنا والكيفية التي تم بها ذلك. وهذا شيء لم يتأت بعد القيام به إلى الآن إلا فيما ندر. وإنما يقتصر في أغلب الأحيان على تحديد خط حدودها.

حينما نتمكن من أن نرى جيدا، وهذا ما حاولنا أن نسجله من قبل في مكان آخر، أن إقليمنا ينمو، كأى كائن حي، بطريقة بطيئة وعلى مدى مدة طويلة؛

وأنه لكي يُتصور وجوده وتاريخه، لا ينبغي أن يتخيله المرء وكأنه مكيف في نموه بدعامة صلبة مزعومة من الحدود الطبيعية، بل بالبحث في داخله بالذات، إن صح التعبير، عن قانون نموه التدريجي، فإن ذلك سيكون مرة أخرى دعما مناسباً كالذي وفره علم اللهجات، يؤكد أبحاثنا بأعماله ويساعدنا مثلاً على التمييز عند حدود اقليمين ومجموعتين تاريخيتين، بين نصيب كل منهما في احتلال الأرض وتبثتها.